فرانتز فانون

1922-1961

فرانتز فانون، أسود من جزر المارتينيك، ولد عام 1922 في هذه المستعمَرة التي يحمل سكانها الجنسية الفرنسية. جاء الى فرنسا لإكمال تحصيله العلمي، فدرس الطب في مدينة ليون، فأظهر في حياته الدراسية تفوق ونبوغ. تخرج متخصصا بالطب العقلي وعين طبيبا للأمراض العقلية بمدينة بليدة الجزائرية. وقد دون في كتابه الاول "العام الخامس للثورة الجزائرية" كيف يشوه الاستعمار الطبيعة الانسانية وقد اعتمد في كتابه على دراسة مرضاه الجزائريين.

ومن مراقبته للثورة رأى كيف تحمل الى النفوس البرء والتطهر، وكيف تغسل المجتمع الثائر من الجمود والتأخر، وتعتقهم من قيود العادات البالية التي كانت تسيطر عليهم.

رافق فانون ثورة الجزائر من بدايتها. وآمن بأنها ثورة جذرية، ثورة انسانية اصيلة لن تنحصر في ارضها، وشعبها. بل سَتردد اصداؤها في افريقيا كلها، وفي جميع البلاد المستعمَرة المتخلفة. قرر فانون أن ينضم الى صفوف الثوار، ففي عام 1957 قدم استقالته من منصبه كرئيس لمستشفى الامراض العقلية – في رسالة استقلته وصف جريمة الاستعمار الغربي الذي يخضع الانسان ويقتل انسانيته وانخرط في ثورة الجزائر انخراطاً كاملاً. استقبلته ثورة الجزائر باسطة له ذراعيها، واسندت اليه مهمات شتى، منها تمثيل ثورة الجزائر في كثير من المؤتمرات الدولية رئيسا لوفدها. أكد فرانتز فانون انه على المثقف المحتل ان يقاتل مع شعبه بعضلاته كما يحارب بفكره وقلمه. ولكن جسم فانون لم يسعفه طويلا في هذه المعركة بل تداعى في منتصف الطريق. فقد أصيب بسرطان الدم، حتى اذا استشرى مرضه ادخل احد مستشفيات سويسرا، ثم نقل الى مستشفى بواشنطن، وهناك انجز كتابه "معذبو الأرض". في كانون اول عام 1961 توفي فانون ولم يتم الاربعين من عمره. حملت الطائرة جثمانه الى تونس، ومن هناك اخترق المجاهدون بنعشه الحدود مكفناً بالعلم الجزائري، ليدفنوه في تراب الجزائر عند مرابض المقاتلين كما اراد. كذلك مات فانون المارتينيكي الاصل، الجزائري النضال، الانساني التفكير، تاركا في جسم المستعمرين آثارا من خدش اظافره، وتاركا في ربوع الجزائر انواراً من دفق عقله وقلبه.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

معذبوالأرض*

في العنف

سواء اقلنا تحريرا وطنيا، أم نهضة قومية، أم انبعاثا شعبيا، أم اتحادا بين الشعوب، وكيف كانت العناوين المستعملة والمصطلحات الجديدة، فان محو الاستعمار إنما هو حدث عنيف دائما. إن محو الاستعمار على أي مستوى درسناه: سواء أكان مستوى لقاء الأفراد بعضهم ببعض، أم مستوى تسمية النوادي الرياضية بأسماء جديدة، أم مستوى التشكيل الإنساني لحفلات الكوكتيل وأجهزة الشرطة ومجالس إدارة المصارف القومية أو الخاصة، إنما هو إحلال "نوع " إنساني محل "نوع " إنساني آخر، إحلال كليا، كاملا مطلقا، بلا مراحل انتقال. وفي وسعنا طبعا أن نبين أيضا انبثاق أمة جديدة، وقيام دولة جديدة مع علاقاتها الدبلوماسية واتجاهها السياسي والاقتصادي. ولكنني إنما اخترت أن أتحدث عن هذا النوع من المحو الذي يحدد في البداية كل إزالة للاستعمار. والحق أن دليل النجاح إنما هو تبديل صور المجتمع تبديلا تاما وهذا التبديل يستمد خطورته الخارقة من انه قد أريد إرادة ملحة شديدة. فان ضرورة هذا التبديل قائمة في وجدان وحياة الرجال والنساء المستعمَرين على حالة فجة جارفة قاهرة. ولكن احتمال هذا التبديل يعيشه أيضا وجدان "نوع "آخر من الرجال والنساء، هو نوع المستعمِرين، على صورة مستقبل مروع ورهيب.

إن محو الاستعمار، وهو يهدف تغير نظام العالم، إنما هو برنامج لقلب النظم قلبا مطلقا. ولكنه لا يمكن إن يكون ثمرة عملية سحرية أو زلزال طبيعي أو تفاهم ودي، أي انه لا يمكن أن يُفهم ولا يمكن أن يُعقل ولا يمكن أن يصبح واضحا لنفسه، إلا بمقدار إدراك الحركة الصانعة للتاريخ التي تهب له شكله ومضمونه. إن محو الاستعمار إنما هو نزال بين قوتين متعارضتين أساسا، قوتين تستمد كل منهما صفتها الخاصة من ذلك التكوين الذي يفرزه الظرف الاستعماري ويغذيه. إن التجابه الأول الذي تم بين هاتين القوتين إنما تحت شعار العنف...

ومحو الاستعمار لا يمكن أن يعبر عبورا دون أن يلاحظه أحد، لأنه يتناول الوجود، لأنه يغير الوجود تغيرا أساسيا، لان أناسا مشاهدين يسحقهم لأنه ليس لهم ماهية، يأتي محو الاستعمار هذا فيحيلهم أناسا فعالين ممتازين يدخلون تيار التاريخ دخولا رائعا. إن محو الاستعمار يبث في الوجود إيقاعا خاصا يجيء به الرجال الجدد، ويحمل إلى الوجود لغة خاصة وإنسانية جديدة. إن محو الاستعمار لهو خالق رجال جدد حقا. ولكن هذا الخلق لا يستمد مشروعيته من أية قوة فوق الطبيعة. إن المستعمر "الشيء " يصبح إنساناً بمقدار ما يحق من عمل لتحرير ذاته.

ففي محو الاستعمار يجب إذن تَغيير الوضع الاستعماري تغيراً كاملاً. ويمكن أن يقوم تعريفه، إذا أردنا أن نصفه وصفاً دقيقاً، في هذه العبارة المعروفة: " الأواخر سيصبحون الأوائل". إن محور الاستعمار تحقيق لهذه الجملة. ولذلك فان كل محو للاستعمار هومن ناحية الوصف نجاح.

إن العالم المستعمَر منقسم إلى عالمين. والخط القاسم، أو الحدود الفاصلة إنما هي لثكنات ومراكز الشرطة. فالدركي والشرطي في المستعمرات هما المرجع القيم الشرعي الذي يستطيع المستعمَر أن يرجع إليه وان يخاطبه، وهما الجهة التي تنطق بلسان المستعمر ونظام الاضطهاد. إننا نرى في المجتمعات التي تنتمي إلى الطراز الرأسمالي، إن التعليم، سواء أكان دينياً أو علمانياً، وتكوين المنعكسات الأخلاقية التي يأخذها الأبناء عن الآباء، والشرف المثالي الذي يسنده إلى عمال يمنحون الأوسمة بعد خمسين عاماً أنفقوها في القيام بخدمات طيبة مستقيمة وتشجيع حب الاتزان والتعقل، هذه الأشكال الجمالية لاحترام النظام القائم تخلق حول المستغَل جواً من الخضوع والامتناع يخففان عبئ قوى

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

الأمن تخفيفاً كبيراً. إننا نرى في البلاد الرأسمالية طائفة كبيرة من أساتذة الأخلاق والموجهين والمصلحين تقف حائلاً بين المستغَل والسلطة الحاكمة. أما في المناطق المستعمَرة فان الدركي والشرطي بحضورهما المباشر وتدخلاتهما السريعة الكثيرة، يظلان على اتصال بالمستعمَر وينصحانه بالعصا أو بالمواد المحرقة، أن لا يتحرك. وهكذا ترون أن وسيط السلطة الحاكمة يستعمل هنا لغة هي عنف صرف. إن الوسيط لا يخفف هنا الاضطهاد، ولا يسدل على السيطرة حجاباً... انه يعرضهما، انه يظهرهما. إن الوسيط يحمل العنف إلى بيوت المستعمَر والى أدمغته.

والمنطقة التي يسكنها المستعمَرون لا تكمل المنطقة التي يسكنها المستعمِرون. إن هاتين المنطقتين تتعارضان، ولكن لا في سبيل وحدة أعلى، انهما تخضعان لمنطق ارسطي صرف، انهما تخضعان لمبدأ التنافي المتبادل فلا سبيل إلى مصالحة: إن أحد الطرفين زائد يجب أن يزول. إن مدينة المستعمِر أو المستوطن مدينة صلبة مبنية بالحجر والحديد، مدينة أنوارها ساطعة، وشوارعها معبدة بالإسفلت وصناديق القمامة فيها ما تنفك تبلع نفايات ما عرفها الآخرون، ولا رأوها يوماً، ولا حلموا بها يوماً. والمستعمِر لا ترى قدماه عاريتين قط، الهم إلا على شواطئ البحر، ولكن الآخرين لا يمكن أن يقتربوا منهما اقتراباً كافياً. قدمان تحميهما أحذية متينة، مع أن شوارع مدينتهما نظيفة ملساء لا ثقوب فيها ولا حصى.

أما مدينة المستعمَر، أو مدينة السكان الأصليين، أما القرية الزنجية، أما بلدة الأهالي. أما الحي الذي يحظر على الأوربيين أن يتجولوا فيه، فهو مكان سيئ السمعة يسكنه أناس سيئو السمعة.

هذا العالم المقسم، هذا العالم المقسم قسمين، يسكنه نوعان مختلفان. حين ندرك النظام الاستعماري في واقعه المباشر، نلاحظ أن ما يقسم العالم إنما هو أولا: انتساب المرء أو عدم انتسابه إلى نوع معين إلى عرق معين. إن البنيان التحتي الاقتصادي هو، في المستعمرات، بنيان فوقي أيضا. السبب هنا نتيجة المرء غني لأنه ابيض وابيض لأنه غني. لذلك كان علة التحليلات الماركسية أن تخفف من حدتها قليلا حين تعالج مشكلة المستعمرات. وحتى مفهوم المجتمع السابق على الرأسمالية الذي أجاد ماركس دراسته، يتطلب هنا إعادة تفكير فيه. إن ماهية العبد غير ماهية الفارس ولكن لابد من الاستناد الى الحق الإلهي لإضفاء صفة الشرعية على هذا الفرق القائم. إن الأجنبي في المستعمرات، قد جاء من مكان آخر، وفرض نفسه بمدافعه وآلاته. فالمستعمِر يظل أجنبيا رغم نجاحه في التطويع ورغم التملك الذي حققه لنفسه. إن ما يميز الطبقة الحاكمة أولا وقبل كل شيء ليس هو المصانع ولا الأملاك ولا الرصيد في البنك، وإنما النوع الحاكم هو أولا وقبل كل شيء هو النوع الذي جاء من مكان آخر النوع الذي لا يشبه السكان الأصليين، هو نوع "الآخرين".

والعنف الذي سيطر على ترتيب العالم الاستعماري، والذي عمل بلا كلال على تحطيم صورة الحياة الاجتماعية لدى السكان الأصليين، وخرب بلا قيود طراز الاقتصاد، وأشكال المظهر، والملبس، سيطالب به المستعمر وسيتولاه، في اللحظة التي يقرر فيها أن يكون هو التاريخ أعمالا، فإذا الجمهور المستعمَر يهوى على هذه المدن الممنوعة عنه. إن تحطيم العالم الاستعماري هو بعد أن الآن صورة واضحة المعالم بينة السمات للعمل الذي يجب على المستعمَر أن يقوم به، صورة يفهمها كل الفهم كل فرد من الأفراد الذين يتألف منهم الشعب المستعمَر، ويستطيع ان يستعيدها ثم يستعيدها مرة بعد مرة. وتحطيم العالم الاستعماري لا يعني انه سيحافظ على ممرات بين المنطقتين، بعد إزالة الحدود التي تفصل أحدهما عن الأخرى. إن تحطيم العالم الاستعماري لا يعني إلا شيئا واحدا هو إزالة إحدى هاتين المنطقتين، فإما دفنها في أعمق أعماق الارض، واما طردها من البلاد.

وتغير المستعمر للعالم الاستعماري ليس معركة عقلية بين وجهتي نظر، ليس خطابا في المساواة

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

بين البشر، إنما هو تأكيد عنيف لأصالة تُفرض مطلقة. إن العالم الاستعماري عالم ثنائي. والمستعمِر لا يكتفي بان يحد مجال المستعمَر، باستعمال القوة المادية، أي بواسطة شرطته ودركه، وإنما يجعل من المستعمَر روح الشر وخلاصته، كأنه يدل بذلك على الاستغلال الاستعماري كلي شامل. أنهم لا يكتفون بان يصفوا المجتمع المستعمر بأنه خال من القيم. وإنما هو يعلن أن السكان الأصليين لا سبيل لنفاذ الأخلاق إلى أنفسهم، وان القيم لا وجود لها عندهم، بل انهم إنكار للقيم، أوقل انهم أعداء للقيم. فالمستعمَر بهذا المعنى هو الشر المطلق. انه عنصر متلف يحطم كل ما يقاربه، عنصر مخرب يشوّه كل ما له صلة بالجمال أو الأخلاق، انه مستودع قوى شيطانية انه أداة لقوى عمياء، أداة لا وعي لها ولا سبيل إلى إصلاحها.

ومتى أخذ المستعمَر يرسخ أقدامه على قواعدها، ويُقْلِق المستعمِر، أوفدوا إليه رجالا أخيارا يحدثونه في "مؤتمرات الثقافة" عن خصائص القيم الغربية وعن غناها. ولكن كلما دار الحديث على القيم الغربية حدث لدى المستعمَر نوع من التصلب والتشنج العضلي. انهم في فترة من التحرر من الاستعمار يناشدون عقل المستعمَرين، ويعرضون عليهم قيما أكيدة، ويشرحون لهم في كثير من الإفاضة أن التحرر من الاستعمار يجب أن لا يعني التقهقر إلى وراء وأن عليهم أن يعتمدوا على قيم مجربة وطيدة راسخة. غير أن ما يحدث هو أن المستعمَر حين يسمع خطابا عن الثقافة الغربية، يخرج خنجره أو يتلمسه في مكانه ليتأكد من وجوده. ذلك أن العنف الذي كفل تفوق قيم البيض، وأن العدوان الذي لابس المعركة الظافرة التي خاضتها هذه القيم من أنماط الحية والفكر الخاصة بالمستعمَرين، يجعلان المستعمر يسخر حين يتحدث أحد أمامه عن هذه القيم. إن المستعمِر لا يتوقف أثناء فترة الاستعمار عن عمله في إنهاك المستعمَر وتحطيمه، إلا إذا اعترف له هذا بتفوق قيم البيض اعترافا صريحا واضحا. وفي فتر التخلص من الاستعمار تسخر الجماهير المستعمَرة من هذه القيم ذاتها، بل تهينها وتبصقها بصقا.

في المناطق المستعمَرة التي شب فيها نضال حقيقي من اجل التحرر من الاستعمار، في المناطق التي سال فيها دم شعب، في المناطق التي أتاح فيها طول المرحلة المسلحة للمثقفين أن يعودوا إلى القواعد الشعبية نشاهد استئصالا حقيقيا للأفكار التي استمدها هؤلاء المثقفون من الأوساط البرجوازية الاستعمارية قد استطاعت في حوارها النرجسي مع نفسها، وبواسطة رجالها الجامعيين، أن تغرس في أعماق المستعمَر أن الماهيات تبقى خالدة رغم جميع الأخطاء التي تنسب إلى البشر، وهم يعنون الماهيات الغربية طبعا. وكان المستعمَر يسلم بهذه الأفكار، فكأن حارسا يقظا مكلفا بالدفاع عن الثقافة الإغريقية اللاتينية أصبح يقف في ثنية من ثنايا عقله. أما أثناء الكفاح من أجل التحرر، في اللحظة التي يسترد فيها المستعمَر اتصاله بشعبه، فان هذا الحارس المصطنع يتهشم. فإذا جميع القيم التي تسمى قيم البحر الأبيض المتوسط التي تنادي بانتصار الشخصية الإنسانية، وتدعو إلى الوضوح والجمال. تصبح دمى لا حياة فيها ولا لون، وإذا جميع تلك الخطب تبدو تركيبات ألفاظ ميتة.

ولكن يحدث أن تتم تصفية الاستعمار في مناطق لم يهزها الكفاح التحرري هزا كافيا. فإذا نحن نصادف هؤلاء المثقفين أنفسهم الذين يتصفون بالبراعة والمكر والحذق في تحقيق أغراضهم الشخصية، وإذا نحن نجد فيهم عين أنماط السلوك وأشكال التفكير التي التقطوها من معاشرتهم للبرجوازية الاستعمارية، لقد كانوا للاستعمار أبناءه المدللين، وهم الآن للسلطة أبناؤها المدلين أيضا، ينهبون الموارد الوطنية نهبا، ويندفعون إلى الإثراء بالصفقات والسرقات المشروعة اندفاعا لا يعرف الرحمة، عن طريق الاستيراد والتصدير، والشركات المغفلة، ومضاربات البورصة، والرشوة... على أكتاف البؤس الذي أصبح الآن وطنيا. انهم يطالبون في إلحاح أن تكون الأعمال التجارية في أيدي أبناء الأمة وحدهم. ومعنى ذلك عندهم أن تحصر سرقة الأمة في أبناء الأمة. ولا شك أن نجاح أساليبهم الماكرة سرعان ما

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

يثير غضب الشعب وعنفه، أثناء فترة القحط الوطني هذه، أثناء ما يسمى فترة التقشف. وذلك أن هذا الشعب البائس الذي نال استقلاله في الظروف الإفريقية والدولية الراهنة، يسير نحو الوعي الاجتماعي بخطى حثيثة. ولن تلبث النفوس الصغيرة أن تدرك هذه الحقيقة في وقت قريب.

أن المثقف يتصرف في هذه الفترة تصرف رجل انتهازي رخيص، والحق أن مناوراته لم تنقطع لحظة، والشعب لا يريد أن يبعده أو يحرجه، فما يريد الشعب منه هو أن يكون كل شيء مشتركا. ووجود ذلك الميل الغريب إلى التفاصيل لدى المثقف هو الذي سيؤجل انغماس المثقف في الموجة الشعبية العارمة. لا لان الشعب عاجز عن التحليل فهو يحب أن تشرح له الأمور، هو يحب أن يفهم مفاصل استدلال من الاستدلالات، يحب أن يرى إلى أين هو ذاهب، ولكن المثقف المستعمَر في أول اتصاله بالشعب، يركز اهتمامه على التفاصيل الدقيقة، ويصل من ذلك إلى نسيان هدف الكفاح نفسه، ألا وهو إلحاق الهزيمة بالاستعمار. انه وقد جرفته حركة الكفاح المتعددة الأشكال، يميل إلى التركيز على مهمات محلية يتابعها في حماسه، ولكنه يسرف في تقدير عظمتها. انه لا يرى في كل وقت. انه يجيء بفكرة الفروع والاختصاصات والميادين، فيريد أن يطبقها على هذه الآلة الجبارة التي تخلط وتدمج، اعني الثورة الشعبية، انه وقد انخرط في القيام بأعمال معينة في الجبهة، يتفق له أن ينسى وحدة الحركة حتى إذا وقع إخفاق محلي ما، رأيته يستسلم للشك، بل ولليأس أيضا. ولا كذلك الشعب، فانه يتخذ منذ البداية مواقف إجمالية. الأرض والخبز: ماذا علينا أن نعمل حتى نحصل على الأرض والخبز؟ وهذه النظرة التي ينظرها الشعب، هذه النظرة التي تبدو في الظاهر محدودة ضيقة، هي في حقيقة الأمر، مثال النظرة التي تغني العمل وترفده بالقوة وتكفل له النجاح.

والمستعمَر الذي ترسبت في عضلاته روح الهجوم والعدوان هذه، إنما يصبها أولا على ذويه فهذه الفترة التي نرى فيها الزنوج يقضي بعضهم على بعض، ونرى فيها رجال الشرطة والقضاء يذهلون من فرط انتشار الجرائم في شمال إفريقيا. وسنرى فيما بعد تحليل هذه الظاهرة. ويكفينا الآن أن نقول أن المستعمَر جحيما ينبغي الابتعاد عنه بأقصى سرعة ممكنة، وإنما يمثل جنة قريبة التناول تحميها زبانية رهيبة، فتدفع عنها الجمهور المستعمَر بكل ما أوتيت من قوة غاشمة.

فعلى الأفراد نشهد أمورا تخالف المنطق حقا: فبينما نرى المستعمِر أو الشرطي يستطيعان من أول النهار إلى آخره أن يضربا المستعمَر أو يهيناه وأن يركعاه، نجد المستعمَر يشهر سكينه عند أيسر نظرة عدائية أو هجومية يلقيها على مستعمِر آخر، لان آخر ما بقي للمستعمَر هو أن يدافع عن شخصيته تجاه مواطنه. ولما كانت الصراعات القبلية استمرارا لأحقاد قديمة مغروسة في الذاكرة، فان المستعمَر حين يخوض معارك الثأر بكل ما أوتي من قوة، إنما يحاول أن يقنع نفسه بأن الاستعمار لا وجود له، وأن جميع الأمور تجري كما كانت تجري في الماضي، وأن التاريخ يستمر. ومن الواضح كل الوضوح أن هذا السلوك على مستوى الجماعات، نوع من ذلك "السلوك الهروبي" المعروف، كأن هذا الانغماس في دم الاخوة يمكن أن يعمى عن رؤية العدو الحقيقي، وأن يؤجل خوض المعركة التي لا بد من خوضها، ألا وهي المعركة المسلحة ضد الاستعمار. إن المعارك التي تقوم بين القبائل إما هي تدمير للذات، وهذا التدمير هو إحدى الطرق التي يتحرر بها المستعمَر من توتر عضلاته. وهذا السلوك كله إنما هو انتحار تجاه الخطر، انتحار يسمح للمستعمِر الذي تقوى حياته وتشتد سيطرته، أن يقول بهذه المناسبة نفسها أن هؤلاء الناس ليسوا عقلاء. وهناك وسيلة أخرى يعمد إليها المستعمَر من أجل أن لا يعبأ بالمستعمِر، وهي الدين. فبواسطة الإيمان بالقدر يجرد المضطهد من المسؤولية، باعتبار أن الله علة كل شيء. فهو الذي أراد هذه الآلام وهذا البؤس وهو الذي رسم هذا المصير، فعلى الفرد أن يقبل هذا الفناء الذي أراده الله، وهكذا يخضع المستعمَر مذعنا للقضاء والقدر، ويصل من ذلك بنوع من تحقيق

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

التوازن الداخلي، إلى هدوء كهدوء الصخر.

وتجري الحياة في أثناء ذلك. ومن الخرافات المرعبة الكثيرة في المجتمعات المتخلفة، إنما يمضي المستعمَر يستمد أسبابا تمنع روح الهجوم عنده من الانطلاق، فهو يتصور وجود جن شريرة تتربص به كلما حاول أن يتحرك، ويتصور وجود بشر أسود، وبشر أفاعي، وكلاب لها ست أرجل، وغيلان وعدد لا نهاية له من الكائنات الصغيرة أو العملاقة، تبني من حوله محرمات وسدودا وموانع أرهب من العالم الاستعماري نفسه. إن هذه المعتقدات السحرية التي يعج بها مجتمع السكان الأصليين تحقق في الحياة الجنسية وظائف معينة. فمن خصائص المجتمعات المتخلفة أن الغريزة الجنسية فيها أمر جماعي، عائلي.

ولكننا نشهد في أثناء كفاح التحرير برء المجتمع من أمراض هذه الطقوس. أن المستعمَر حين يجعل ظهره إلى الجدار، وتوضع السكين على عنقه، أو يقرب السلك الكهربائي من أعضائه الجنسية، يضطر إلى هجر تلك الخزعبلات انه بعد أن أنفق من عمره سنوات في الأوهام والأخيلة، بعد أن غرق في تلك التهاويل الغريبة، يمسك الآن رشاشه بيده، ويقاتل القوى التي كانت وحدها تنكر وجوده وكيانه، أعني قوى الاستعمار. والمستعمَر الشاب الذي ينمو ويترعرع في هذا الجو من الحديد والنار يستطيع أن يسخر –وهو يسخر حقاً –من الأجداد والأشباح، والخيول ذات الرأسين، والموتى الذين يستيقظون، والجن الذين يترقبون أن يتثاءب المرء حتى يتسللوا إلى جسمه، إن المستعمَر يكتشف في الواقع ويبدله حين يقوم بحركة نضالية، ويمارس العنف، ويعمل في سبيل التحرير.

ولكن حين يجيء كفاح التحرير، فان هذا الشعب الذي كان قبل ذلك مقسم إلى طوائف وهمية، هذا الشعب الذي كان فريسة رعب هائل لا يغلب، وكان مع ذلك سعيدا بضياعه في زوبعة الأوهام، بتبدل أثناء كفاح التحرير، وينظم نفسه تنظيما جديداً، ويخلق في وسط الدم والدموع مهمات واقعية جداً، مباشرة جداً. فتقديم الطعام للمجاهدين، والقيام بأعمال الحراسة والمراقبة، ومساعدة الأسر المحرومة مما يقيم الأود، والنهوض بأعباء زوج قتل أو سجن، تلك مهمات محسوسة ملموسة يدعى إليها الشعب أثناء كفاح التحرير.

والحياة الانفعالية لدى المستعمَر في العالم الاستعماري تجري على السطح كجرح نازف، والنفس تنقبض وتتفصد، وتفرغ شحناتها مظاهر عضلية جعلت بعض "كبار العلماء" يقولون عن المستعمَر انه إنسان مصاب بالهستيريا. إن هذه الانفعالية المتوفرة التي يراقبها حرس لا يرون، ولكنها تتصل بنواة الشخصية رأسها، لا بد لتجد لذاتها في تلك الانحلالات الحركية التي تلاحظ أثناء حدوث النوبة.

هناك على مستوى التكتيك السياسي وعلى مستوى التاريخ مسألة نظرية هي على جانب عظيم من خطورة الشأن، يطرحها في العصر الراهن تحرير المستعمرات، هذه المسألة هي: متى يمكن القول إن الوضع قد نضج إلى الحد الذي يجب فيه القيام بحركة تحرير وطني! ومن هي الطليعة التي يجب أن تقوم بهذه الحركة؟ فلأن القضاء على الاستعمار قد أتخذ أشكالا مختلفة وصور متعددة، فان العقل يتردد إزاء هذه المسألة، ويمتنع عن القطع برأي فيما هو قضاء حقيقي على الاستعمار وفيما هو تصفية كاذبة للاستعمار. وسنرى أن على الإنسان الذي قرر الانخراط في المعركة أن يحدد الوسائل والتكتيك، أي أن يعين السلوك والتنظيم، وإلا لم يكن الأمر إلا اندفاعاً أعمى، مع ما يستتبعه هذا الاندفاع الأعمى من مخاطر الرجعة والانتكاس.

ما هي القوى التي تقترح على المستعمَر في فترة الاستعمار أن يصب عنقه في طرق جديدة،

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

وأن ينفق طاقاته في أعمال جديدة؟ هذه القوى هي أولا الأحزاب السياسية والنخبة المثقفة والنخبة التجارية. ولكن نحن نعلم أن ما يميز بعض التشكيلات السياسية هي أنها تنادي بمبادئ، ولكنها تمتنع عن إطلاق شعارات. وكل النشاط الذي تقوم به الأحزاب السياسية الوطنية إنما هو في فترة الاستعمار نشاط من النوع الانتخابي، هو سلسلة من المقالات الفلسفية السياسية حول فكرة حق الشعوب في تقرير مصيرها، وحق البشر في الكرامة والخبز، هو ترديد لا ينقطع للمبدأ القائل " أن لكل فرد صوتاً"، إن الأحزاب السياسية الوطنية لا تلح أبدا على ضرورة استخدام القوة، لان هدفها ليس قلب النظام القائم واستئصاله من جذوره. إن هذه الأحزاب أحزاب مسالمة تنادي بالمشروعية، وتناصر في حقيقة الأمر النظام... الجديد، ولا تزيد على أن توجه البرجوازية الاستعمارية هذا الطلب: "أعطونا مزيدا من السلطة". أما النخبة المثقفة فهي في مسألة العنف ليس لها وجه تعرف به، هي عنيفة في الأقوال، إصلاحية في المواقف والأعمال. أن المنظمات السياسية الوطنية البرجوازية تقول شيئاً وتعني غيره.

ويجب أن نفسر هذه الخاصة التي تميز الأحزاب السياسية الوطنية، بأمرين في آن واحد هما نوع قادتها ونوع قاعدتها. أن قاعدة الأحزاب السياسية الوطنية تتألف من أفراد من سكان المدن. وهؤلاء العمال والفلاحون وأصحاب الحرف والتجار الذين بدأوا يستفيدون من الوضع الاستعماري ولو استفادة ضئيلة، هؤلاء لهم مصالح خاصة. وما تطالب به هذه القاعدة الشعبية في الأحزاب السياسية إنما هو تحسين أحوالها وزيادة أجورها. والحوار بين الأحزاب السياسية والاستعمار لم ينقطع يوما. فهي تبحث في تحسين الأحوال والتمثيل الانتخابي، وفي حرية الصحافة وفي حرية الاجتماع، إنها تبحث في الإصلاحات. ولذلك يجب أن لا يدهشها أن نرى عددا كبيرا من السكان الأصليين ينتمون إلى فروع المنظمات السياسية الموجودة في البلد المستعمِر، أن هؤلاء ينادون بشعار مجرد: "السلطة لطبقة البروليتاريا" ناسين أن شعارات وطنية هي التي يجب أن تكون أساس المعركة في وطنهم. إن المثقف المستعمَر ينفق طاقاته الهجومية في صبوة مكشوفة إلى التشبه بالعالم الاستعماري. لقد وضع طاقاته الهجومية في خدمة مصالحه الخاصة، وهي مصالح أفراد، وبذلك تنشأ بسهولة، طبقة من العبيد المحررين فرديا، إن ما يطالب به المثقف هو تكثير عدد هؤلاء المحررين، هو إقامة طبقة من المحررين. ولا كذلك الجماهير، فإنها لا تهدف إلى زيادة فرص نجاح الأفراد. إن ما تريده ليس الحصول على الحقوق التي يتمتع بها المستعمِر، بل هو أخذ مكان هذا المستعمِر. إن الأكثرية الساحقة من المستعمَرين تريد أن تستولي على مزرعة المستعمِر. ليس هدفهم أن يكونوا والمستعمِر أندادا متنافسين، وإنما هدفهم أن يحلوا محله.

وحين أزفت ساعة الحساب الحاسم، رأينا البرجوازية الاستعمارية التي ظلت إلى ذلك الحين مبتعدة، رأيناها تتدخل، منادية بهذه الفكرة الجديدة التي هي في حقيقة الأمر من مبتكرات الدفاع الاستعماري، ألا وهي فكرة "اللا-عنف". وفهمت النخبة المثقفة والاقتصادية المستعمَرة من مناداة البرجوازية الاستعمارية "باللا-عنف" على هذه الصورة الخاصة أن لهذه البرجوازية الاستعمارية نفس المصالح التي لها، وأن من الضروري المستعجل والحالة هذه أن تبادر إلى عقد اتفاق معها يضمن سلامة الطرفين. أن الاعنف هو محاولة لتسوية المسألة الاستعمارية على مائدة خضراء قبل التورط في أية حركة لا سبيل إلى تراجعها، قبل ارهاق الدم قبل القيام بأي عمل مؤسف، حتى إذا رأوا الجماهير، قبل أن يصفوا الكراسي حول المائدة الخضراء تأبى أن تسمع غير صوت ضميرها، فتبادر إلى استعمال الحرائق والقيام بمهاجمتها، هرعوا -أي أفراد "النخبة" وقادة الأحزاب البرجوازية الوطنية – إلى الاستعماريين يقولون لهم :"الأمر خطير جدا. وليس يدري المرء كيف أن ينتهي هذا كله. فلا بد من إيجاد حل، لا بد من إيجاد تسوية".

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

وفكرة التسوية هذه هامة جدا في ظاهرة التحرر من الاستعمار، لأنها ليست بسيطة. فالتسوية تناول في الواقع النظام الاستعماري والبرجوازية الوطنية الناشئة. إن قادة النظام الاستعماري يكتشفون أن الجماهير تهم أن تحطم كل شيء، فنسف الجسور، وتخريب المزارع، وأنواع القمع، والحرب، ذلك كله يطعن الاقتصاد طعنا قاسيا. والتسوية تهم البرجوازية الوطنية أيضا، فهذه البرجوازية الوطنية تخشى النتائج التي يمكن أن تنجم عن هذا الإعصار الجبار، وتخاف أن تنكسها الرياح العاصفة، فلا تفتأ تقول للمستعمِرين: " إننا ما زلنا قادرين على أن نوقف المذبحة، فالجماهير لا تزال تثق بنا، فأسرعوا إذا كنتم لا تريدون أن تعرضوا للمخاطر كل شيء ". وما هي إلا خطوة واحدة، حتى نرى موجة الحزب الوطني يعلن معارضته لهذا العنف، ويقول بصوت عال أن لا شأن له بهؤلاء الماو ماو**، لا شأن لهم بهؤلاء الإرهابيين، لا شأن له بهؤلاء الذباحين. وهو في أحسن الحالات يقف في " منطقة محرمة" تفصل بين الإرهابيين والمستعمِرين. ويعرض نفسه "وسيطا" بين الطرفين، ومعنى هذا أنه لما كان المستعمِرون لا يستطيعون أن يبحثوا الأمر مع هؤلاء الماو ماو، فهو يتطوع للقيام بالمفاوضات. وهكذا نرى الناس الذين كانوا في مؤخرة الكفاح الوطني، الناس الذين لم يشتركوا يوما في النضال، يصبحون بنوع من البهلوانية طليعة المفاوضين في سبيل إيجاد تسوية لا لشيء إلا لأنهم حرصوا دائما على أن تبقى الصلة قائمة بينهم وبين الاستعمار.

قبل المفاوضات، تكتفي أكثر الأحزاب الوطنية، في أحسن الأحوال. بـأن تلتمس المعاذير لهذه "الوحشية". إنها لا تطالب بالكفاح الشعبي، وليس نادرا أن نراها تنتقد، في حلقات مغلقة، تلك الأعمال التي تصفها صحافة البلد المستعمَر ويصفها رأيها العام بأنه منكرة كريهة. وهذه السياسة التجميدية تتعلل بالحرص على رواية الأمور رواية موضوعية. ولكن هذا الموقف الذي يقفه المثقف المستعمَر ويقفه قادة الأحزاب الوطنية ليس في حقيقة الأمر موقفا موضوعيا. وانما الواقع أن هؤلاء الناس ليسوا على ثقة بان هذا العنف الجامح الذي تعمد إليه الجماهير والسبيل الأجدى إلى الدفاع عن مصالحهم الخاصة. ثم انهم غير مقتنعين بجدوى الأساليب العنيفة. وعندهم انه لا يجوز الشك في أن كل محاولة لتحطيم الاضطهاد الاستعماري بالقوة إنما هو سلوك يائس، سلوك انتحار. ذلك أن دبابات المستعمِرين والطائرات المقاتلة تحتل في أدمغتهم مكانا كبيرا فمتى قلت لهم: يجب علينا أن نعمل، رأوا القنابل تتسابق فوق رؤوسهم، ورأوا الدبابات تزحف على طول الطريق، ورأوا الرشاشات، والشرطة... فظلوا قاعدين لا يتحركون. إن عجزهم عن الانتصار بالعنف أمر لا حاجة إلى البرهان عليه، انهم يبرهنون على هذا العجز في حياتهم اليومية وفي مناوراتهم. الواقع أن القادة الإصلاحيين لا يقولون شيئا آخر: "بأي شيء تريدون أن تحاربوا المستعمرين؟ بسكاكينكم؟ ببنادق الصيد التي عندكم؟".

صحيح أن الاستقلال قد رد إلى المستعمَرين شعورهم بذاتهم وعزز كرامتهم، ولكن الوقت لم يتسع لهم بعد من أجل إنشاء مجتمع، ومن أجل بناء وتأكيد قيم، أن البؤرة المشعة التي بها ينمو الإنسان ويغتنيان في ميادين ما تنفك تتسع غير موجودة بعد. وإذ أن هؤلاء الناس يعيشون في نوع من عدم التحديد، تراهم يقتنعون في سهولة بأن كل شيء سيتقرر في مكان آخر، بالنسبة إليهم وبالنسبة إلى سائر العالم في آن واحد. أما القادة يترددون وينتخبون الحياد.

إن الحياد يولد لدى المواطن في العالم الثالث اتجاها نفسيا يعبر عن نفسه في الحياة الجارية بعناد وكبرياء يشبهان التحدي شبها كبيرا. إن هذا الرفض القوي للتسوية، وهذا الإصرار الصلب على عدم الارتباط يشبهان سلوك أولئك المراهقين المزهوين المحرومين، المستعدين دائما لان يضحوا بأنفسهم في سبيل كلمة. وهذا كله يحير المراقبين الغربيين ويرتج عليهم. ذلك أن تناقصا فاضحا بين ما يدعيه هؤلاء الناس وما يوجد وراءهم. إن هذا البلد الذي بلا تراموای، ولا جيوش، ولا مال، لا يملك ما

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

يبرر هذه الفخفخة التي يظهر بها، فليس سلوكه هذا إلا ادعاءا فارغا وتظاهرا كاذبا. إن هذا العالم الثالث يشعر المرء بأنه يبتهج بالمأساة، وانه في حاجة إلى نصيبه الأسبوعي من النوبات. إن زعماء هذه البلاد الخاوية الذين يتكلمون بصوت عال يثير الحنق في النفس، إن المرء ليود ان يسكتهم، وانهم يغازلون وتقدم لهم الأزهار، ويدعون، بل قل بصراحة انهم يتنازع عليهم. إن هذا كله لهومن الحياد. انهم وهم أميون في أكثرهم الساحقة ،98 بالمئة، قد كتبت من أجلهم مجلدات ضخمة، وهم يسافرون كثيرا. إن قادة البلاد المتخلفة، وطلاب البلاد المتخلفة، هم من احسن زبائن شركات الطيران، إن المسئولين الإفريقيين يستطيعون في شهر واحد ان يحضروا مؤتمرا عن التخطيط الاشتراكي في موسكو، وعن محاسن الاقتصاد الحر في لندن أوفي جامعة كولومبيا. والنقابيون الإفريقيون من جهتهم، يتقدمون بسرعة متزايدة. وما أن يعهد إليهم بوظائف في أجهزة التوجيه حتى يقرروا أن يكونوا اتحادات مستقلة. انهم لا يملكون خمسين عاما من العمل النقابي في إطار بلد مصنع، ولكنهم يعرفون منذ الآن ان العمل النقابي الذي لا شأن له بالسياسة سخف لا معنى له. انهم لم يجابهوا الآلة البرجوازية، ولا نموا وعيهم في صراع الطبقات. ولكن ربما كان هذا غير ضروري، ربما.

إن ظهور المستعمِر كان معناه لدى المستعمَر موت المجتمع الأصلي وفناء الثقافة القديمة، وتجمد الحياة في الأفراد، في آن معا. فالمستعمَر يرى الآن أن الحياة لا يمكن أن تعود إلى الانبثاق إلا من جثة المستعمِر حين يصبح المستعَمر جثة متفسخة. ذلكم هو التكامل الكامل بين تفكير المستعمِر وتفكير المستعمَر. غير أن هذا العنف، لأنه العمل الوحيد الذي يقوم به الشعب المستعمَر، يكتسي طابعا إيجابيا إنشائيا. فان هذا الكفاح العنيف يجمع الأفراد، إذ أن كل واحد منهم يصبح حلقة عنيفة في السلسة الكبرى، في الجسم الكبير العنيف الذي انبجس ردا على عنف الاستعمار، فإذا الفئات المتخلفة يعرف بعضها بعضا، ويلتقي بعضها ببعض، وإذا الأمة المقبلة تكون منذ الآن كتلة غير منقسمة. إن الكفاح المسلح يعبأ الشعب، أي يقذفه في اتجاه وحيد ليس له ثان.

إن تعبئة الجماهير، حين تتحقق بمناسبة حرب التحرير، تبث في ضمير كل فرد القضية المشتركة، والمصير الوطني والتاريخ القومي. لذلك نرى المرحلة الثانية، أي مرحلة بناء الامة، يسهلها وجود هذا الاندماج الذي عجن بالدم والحقد. وهنا نفهم أصالة الألفاظ المستعملة في البلاد المتخلفة. لقد كان الشعب يُدعى في عهد الاستعمار إلى الكفاح ضد المستعمِر الغاشم. حتى إذا تحقق التحرر الوطني، أصبح يدعى إلى الكفاح ضد الفقر، ضد الأمية، ضد التخلف الاقتصادي. فالكفاح يظل مستمرا، ويتحقق الشعب من أن الحياة معركة دائمة لا تنتهي.

قلنا أن العنف الذي تعمد إليه المستعمِر يوحد الشعب. والواقع أن الاستعمار هو بحكم تركيبه يفرق صفوف الشعب ويغذي النزعة الإقليمية. إن الاستعمار لا يكتفي بأن يعلم أن هناك قبائل، وإنما هو يعزز وجود هذه القبائل، ويفصل بعضها عن بعض، ويميز بعضها عن بعض. إن النظام الاستعماري يغذي الزعامات المحلية وينشط الانقسامات الدينية. ولكن العنف يوحد بين الأفراد على الصعيد القومي. وهو لذلك يحمل في أرحامه بذور القضاء على الإقليمية والقبلية. ومن أجل هذا نرى الأحزاب الوطنية تقسو قسوة خاصة على الزعماء التقليدين، إن تصفية هؤلاء الزعماء تمهيد لتوحيد الشعب.

والعنف يطهر الأفراد من السموم. انه يخلص المستعمَر من مركب النقص الذي يعيث في نفسه فسادا، ويحرره من موقف الشاهد أو اليائس. انه يرد إليه شجاعته، ويرد إليه اعتباره في نظر نفسه. وحتى حين يكون الكفاح المسلح رمزيا، وحتى حين ينتهي بتصفية الاستعمار تصفية سريعة، فان الشعب يتسع وقته لان يدرك أن هذا التحرير قد قام به جميع الأفراد وقام به كل فرد، وان القائد لا يمتاز بفضل خاص. إن العنف يرفع الشعب إلى مستوى القائد ومن هنا كان ذلك النوع من الهجوم على الأداة

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

البروتوكولية التي تبادر بعض الحكومات الفتية إلى استعمالها. إن الجماهير التي شاركت بالعنف في التحرير الوطني لا تسمح لأحد أن يعد نفسه "محررا". إنها حريصة أشد الحرص على ثمرة نضالها، وهي تحاذر أن تعهد مستقبلها وقدراتها ومصير شعبها إلى اله معبود. لقد كانت بالأمس غير مسئولة، ولكنها تريد اليوم أن تفهم كل شيء وأن تقرر كل شيء. أن الضمير الذي أضاءه العنف بنوره، يستعصي على كل محاولة لتهدئة الخواطر. ولذلك فان مهمة الدجالين والانتهازيين والسحرة ستكون مهمة شاقة. إن النضال الذي قذف بالجماهير إلى معركة حامية يكسبها ميلا قويا إلى الأمور المحسوسة الملموسة. ويصبح من المستحيل على أحد أن يضللها ويفتنها عن أمرها.

وعلى هذا المنوال نقول أن الدول الاستعمارية ترتكب خطأً فادحا، وتقترف ظلما لا يوصف اذ هي اكتفت بأن تسحب من أرضنا قواها العسكرية وأجهزتها الإدارية والاقتصادية التي كانت وظيفتها اكتشاف ثرواتنا واستخراجها وتصديرها إلى عواصم البلاد المستعمِرة. إن التعويض المعنوي الذي يحقق لنا الاستقلال لا يعمينا عن الحقيقة، انه لا يطعمنا من جوع. إن ثروات البلاد الاستعمارية هي ثرواتنا أيضا. لقد أتخمت أوروبا ذهبا ومواد أولية من البلاد المستعمَرة : من أمريكا اللاتينية والصين وإفريقيا. فمن جميع هذه القارات التي تتيه عليها لأوروبا اليوم بثرائها الضخم، كانت تمضي منذ قرون إلى أوروبا هذه، الأحجار الكريمة والبترول، والحرير والقطن والأخشاب والمنتجات المحلية. إن أوروبا إنما خلقها العالم الثالث، والثروات التي تتخم أوروبا اليوم إنما سرقتها أوروبا من الشعوب المتخلفة، إن موانئ هولندا وليفربول، ومخازن بوردو وليفربول، المتخصصة في تجارة الرقيق إنما اشتهرت بفضل ملايين العبيد المنقولين. فإذا سمعنا رئيس دولة أوروبية يقول، وقد وضع يده على قلبه، إن من الواجب تقديم المعونة للشعوب المتخلفة المسكينة فان هذا لا يجعلنا نرتعش اعترافا بالجميل بل نقول:" هذا تعويض عادل سيقدم إلينا". لذلك لا نقبل أن تكون المساعدات التي تقدم للبلاد المتخلفة برنامج "صدقات". فإنما ينبغي أن تكون هذه المساعدات منبثقة عن واعيين، وعي يعيه المستعمرون فيفهمون أن هذا حقهم، ووعي تعيه الدول الرأسمالية فتفهم أن عليها حقا أن تدفع. فإذا أبت البلاد الرأسمالية – عن غباء ولا أقول عن نكران الجميل- إذا أبت أن تدفع، فان منطق نظامها نفسه سيتولى خنقها. إن من الأمور الواقعة أن الأمم الفتية لا تجتذب رؤوس الأموال الخاصة كثيرا. هناك أسباب كثيرة تبرر وتعلل هذا التحفظ من قبل الاحتكارات. ومتى عرف الرأسماليون، وهم يعرفون ذلك أول من يعرف، إن حكومتهم تتهيأ للجلاء عن المستعمرة، فانهم يسارعون إلى سحب جميع رأسمالهم من هذه المستعمرة. إن هروب الرساميل على هذه الصورة السريعة ظاهرة من أثبت ظواهر زوال الاستعمار.

إن الشركات الخاصة لا ترضى أن توظف رساميلها في البلاد المستقلة إلا إذا كفلت لها شروط معينة، وقد اتضح بالتجربة أن الشروط التي تطالبها هذه الشركات الخاصة لا يمكن قبولها إذا لا يمكن تحقيقها. إن الرأسماليين وهم يلتزمون مبدأ الربح المباشر متى خرجوا إلى " ما وراء البحار "، يترددون كثيرا إزاء كل توظيف لرساميلهم طويل الأمد. انهم يرفضن بل يعادون في كثير من الأحيان برامج التخطيط التي تضعها الحكومات الفتية. وكل ما يمكن أن يقبلوه، عند الاقتضاء، هو أن يقدموا للدول الفتية قروضا مالية، على شرط أن يحتفظ بهذا المال لشراء المنتجات المصنوعة. والآلات، أي لتشغيل مصانع البلاد المستعمِرة.

وهذا الأسلوب نفسه تستعمله المعارضة الوطنية فيما بعد. ان سلطة الاحتلال قد اختارت واحداً من الحزبين الوطنيين اومن الأحزاب الوطنية الثلاثة التي قامت بحركة التحرير. وأشكال هذا الاختيار كلاسيكية معروفة: إذا فاز أحد الأحزاب بالإجماع الوطني وفرض نفسه على المحتل كمفاوض وحيد، قام المحتل بمناورات كثيرة لتأخير موعد المفاوضات الى أقصى حد، مستعملاً هذا التأخير في تفتيت

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

مطالب هذا الحزب، اوفي الفوز من قيادته بإبعاد بعض العناصر "المتطرفة". أما إذا لم يستطع أي حزب من الأحزاب ان يفرض نفسه حقاً، اكتفى المحتل بتفضيل الحزب الذي يبدوا له اكثر "تعقلاً واعتدالاً" من غيره. وعندئذ نرى الأحزاب الوطنية التي لم تشترك في المفاوضات تأخذ باستنكار الاتفاق الذي تم بين المحتل والحزب الآخر. ويشعر الحزب الذي تسلم السلطة بخطر هذه المواقف الديماغوجية التي يقفها خصمه. فيحاول ان يشتت الحزب المعارض، ويتهمه بأنه غير شرعي، فلا يسع الحزب المعارض إلا ان يعتصم بأطراف المدن والأرياف محاولاً ان يؤلب الجماهير الريفية على " أهل الساحل الذين باعوا أنفسهم"، على "سكان العاصمة الفاسدين المتفسخين". ولا يدع هذا الحزب ذريعة من الذرائع الا ويستعملها، فهو يهاجم خصمه بحجج دينية، وهو يتهمه بالخروج على التقاليد فيما يجنح إليه من اتجاهات تجديدية، مستغلاً جهل الجماهير الريفية وما تتصف به الأرياف من انفعالية وعفوية. وتسري الشائعات هنا وهناك. الجبل قد ثار، الأرياف مستاءة حانقة، أطلق رجال الدرك رصاص بنادقهم على الفلاحين، هبت الحكومة ترسل الإمدادات والنجدات، النظام كله أوشك ان ينهار. وهكذا فان أحزاب المعارضة ـ التي ليس لها برنامج واضح، وليس لها هدف إلا أن تحل محل الفئة الحاكمة، تضع مصيرها بين أيدي الجماهير الريفية الغافلة.

وهكذا يحدث تباعد يشبه القطيعة بين اتجاه التمسك بالشرعية واتجاه الاستخفاف بالشرعية، في صفوف الحزب ويشعر أصحاب الاتجاه الثاني انهم اصبحوا أناس غير مرغوب فيهم. فأصحاب التمسك بالشرعية يتحاشونهم ويتهربون منهم. ولئن كانوا يقدمون لهم يد المعونة بعد احتياطات كثيرة، فهم يشعرون انهم اصبحوا أجانب عن الحزب. وعندئذ يتصل هؤلاء الرجال بأولئك المثقفين الذين أتيح لهم منذ بضع سنوات ان يعجبوا بمواقفهم، فيخرج من هذا الاتصال حزب سري يوازي الحزب الشرعي. ولكن أعمال القمع ضد هذه العناصر التي اصبح استردادها، تزداد بازدياد تقارب الحزب الشرعي من الاستعمار أملا في تبديله من الداخل فإذا بفريق اللاشرعية يجد عندئذ نفسه في منعطف تاريخي فهؤلاء الرجال المنبوذون من المدن يتجمعون، أول الأمر، في الضواحي المحيطة بالمدن. ولكن شبكة الشرطة تكشف أمرهم. فيضطرون أخيرا إلى ترك المدن نهائيا، والى الابتعاد عن أمكنة الصراع السياسي، ماضين إلى الأرياف، إلى الجبال، إلى جماهير الفلاحين. والفلاحون، في مرحلة أولى يحتضنوهم فيخفونهم عن أعين الشرطة. والمناضل الوطني الذي يقرر أن يهجر لعبة التخفي التي كان يلعبها مع الشرطة، وان يربط مصيره بمصير جماهير الفلاحين، لا يخسر أبدا. أن الفلاحين يغطونه كمعطف، ويحنون عليه ويحمونه حماية لم تكن تخطر له ببال. وهكذا نرى أن هؤلاء الرجال الذين نفوا من المدن نفيا، وانقطعوا عن بيئة المدن التي انضجوا فيها أفكارهم عن الأمة وعن النضال السياسي، قد اصبحوا الآن ثوارا حقا. انهم، وهم مضطرون إلى التنقل بغير انقطاع تحاشيا لرجال الشرطة، والى السير حتى لا يلفتوا النظر، يطوفون الآن في البلاد ويعرفونها. وداعا زمان المقاهي، وداعا زمان المناقشات العقيمة عن الانتخابات القادمة! إن آذانهم تسمع الآن صوت الشعب، صوته الحق، وان أبصارهم ترى الآن بؤس الشعب، بؤسه الكبير الذي لا نهاية له. ويدركون انهم أضاعوا وقتا ثمينا في تعليقات على النظام الاستعماري لا طائل فيها ولا نفع منها. ويفهمون أن التبديل لن يكون إصلاحا، ولن يكون تحسينا. ويفهمون، وهم يشعرون بدوار لن يبرحهم. إن التحرك السياسي في المدن سيظل عاجزا عن تغيير النظام الاستعماري، عن قلب النظام الاستعماري.

ويألف هؤلاء الرجال مخاطبة الفلاحين. ويكتشفون أن الجماهير الريفية لم تنقطع يوما عن الاعتقاد بان تحررها لا يتم إلا بالعنف، وبان القضية هي قضية استرداد الأراضي من الأجانب، هي قضية كفاح وطني، هي قضية ثورة مسلحة. الأمر بسيط واضح. يكتشف هؤلاء الرجال شعبا متجانسا منسجما، إن كان يعيش حياة ساكنة جامدة، فانه ما يزال محافظا على قيمة الأخلاقية وعلى ارتباطه

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

بالأمة، يكتشفون شعبا كريما سخيا، مستعدا للتضحية، راغبا في العطاء، نافذ الصبر قوي الشمم والإباء. وواضح أن اللقاء بين أولئك المناضلين الذين تطاردهم الشرطة وبين هذه الجماهير المتوفرة، يمكن أن يؤدي إلى مزيج متفجر ذي قوة لا عهد بمثلها من قبل. فأولئك الرجال الوافدون من المدن يدخلون مدرسة الشعب السياسية والحرب. ويأخذ الشعب بشحذ أسلحته. فالدروس في المدرسة لا تطول، وما تلبث الجماهير التي تسترد اتصالها بعضلاتها، أن تحمل القادة على اقتحام الأمور. وينطلق الكفاح المسلح.

وتحار الأحزاب السياسية تجاه الثورة. ذلك أن عقيدتها قد أكدت دائما انه لا جدوى من اللجوء إلى القوة، بل إن وجودها نفسه إنما هو نفي دائم لقيام أية ثورة مسلحة. حتى أن بعض الأحزاب السياسية تشارك المستعمرين تفاؤلهم سرا، وتهنئ نفسها بأنها في خارج هذا الجنون الذي سيقمع بإسالة الدماء. ولكن النار التي اشتعلت ما تلبث أن تسري إلى مجموع البلاد سريان وباء سريع. وتعجز المصفحات والطائرات عن تحقيق النجاح الذي كان يقدر لها. ويرى الاستعمار استفحال الداء، فيأخذ يفكر. حتى أن أصواتا في صفوف المضطهدين تأخذ تلفت النظر إلى خطورة الوضع. أما الشعب في أكواخه وفي أحلامه فانه يتجاوب مع الحركة الوطنية الجديدة. ويأخذ ينشد للمقاتلين المظفرين، بصوت خافت، في قرارة قلبه، أناشيد لا تنتهي. لقد اجتاحت الثورة الأمة، والأحزاب هي التي أصبحت الآن معزولة. غير أن قادة الثورة ما يلبثون أن يشعروا في ذات يوم أن على الثورة أن تمتد إلى المدن أيضا. انهم ما يلبثون أن يعوا هذه الحقيقة. وليس وعيهم هذا أسرا عريضا، بل هو ثمرة محتومة للمنطق الذي يخضع تطور الثورة المسلحة في سبيل التحرير الوطني. ذلك أن الاستعمار، رغم أن الأرياف هي الينابيع التي لا تنضب لتدفق الطاقات الشعبية، ورغم أن جماعات الثائرين قد أخذت تنشر الاضطراب في الأرياف، يظل واثقا بقوته، مطمئنا إلى انه غير معرض للخطر. لذلك تقرر قيادة الثورة أن تنقل الحرب إلى موقع العدو، إلى المدن الهادئة الباذخة.

وما ظل القلق يهز الاستعمار، فان القضية الوطنية تتقدم إلى أمام، وتصبح قضية كل فرد من أفراد الأمة. إن حركة التحرير أصبحت واضحة المعالم، وهي تتناول مجموع البلاد منذ ألان. والعفوية هي المسيطرة في هذه المرحلة والمبادهة مبادهة محلية. ففي كل منطقة من المناطق تنشأ حكومة مصغرة تستلم زمام الأمر. ونرى سلطة وطنية في كل مكان، في الوديان والغابات، في الأدغال والقرى. إن كل فرد يثبت بنضاله وجود الأمة، ويعمل على أن يكفل لها النصر في المنطقة التي هو فيها. وهكذا نشهد قيام استراتيجية أساسها العمل المباشر الشامل الجذري. إن هدف كل جماعة من هذه الجماعات المسلحة التي تتشكل تشكلا عفويا إنما هو تحرير المنطقة التي هي فيها. ذلك هو هدفها، وذلك هو برنامجها. ما دامت الأمة موجودة في كل مكان، فهي موجودة هنا أيضا. ويتحد الأسلوب –الخطة والاستراتيجية الحربي، بل يستحيل فن السياسة إلى فن حرب. فالمناضل السياسي إنما هو المقاتل الحربي. والحرب والسياسة شيء واحد.

إن هذا الشعب المحروم الذي اعتاد أن يعيش محصورا في نطاق الصراعات والخصومات، يعمل الآن في جو رائع من تطهر الأمة في المنطقة التي هو فيها. انه يشعر بنشوة اجتماعية، فإذا الأسر المتعادية تقرر أن تمحو كل شيء، أن تنسى كل شيء. والأحقاد الراسخة المدفونة تخرج الآن إلى النور لتستأصل بمزيد من الاطمئنان إلى أنها تستأصل. إن تحمل مسؤولية الأمة بأسرها يقوي الوعي. فوحدة الأمة إنما هي وحدة الجماعة قبل كل شيء، إنها إزالة الخصومات القديمة وتصفية التردد. وفي الوقت نفسه يشمل التطهر ذلك العدد القليل من السكان الذين لطخوا شرف البلاد بأعمالهم وبتواطئهم مع المحتل الغاصب. أما الخونة والأشخاص الذين باعوا أنفسهم فانهم يحاكمون وينالون العقاب الذي يستحقونه. إن

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

الشعب الذي يسير هذا السير المتواصل ويخوض غمار المعركة، يسن الآن القوانين، ويكتشف نفسه، ويريد أن يحكم نفسه بنفسه، أن يكون سيد مصيره. إن الشعب يستيقظ كله من السبات الاستعماري، ويعيش في جو رائع من الحماسة، الجموع تتدفق في القرى تدفقا متصلا، السخاء والكرم لا يقفان عند حد، الشهامة والأريحية تنطلقان انطلاقا قويا، الناس يريدون صادقين أن يموتوا في سبيل "القضية" التي يكافحون من اجلها. ويظهر هذا التضامن بمزيد من الوضوح في المرحلة الثانية، المرحلة التي يبدأ فيها العدو بشن هجومه. إن القوى الاستعمارية تجمع صفوفها بعد حدوث الانفجار، وتعيد تنظيم نفسها، وتبدأ باستعمال طرائق في القتال تناسب طبيعة الثورة التي قامت. وهذا الهجوم الذي تشنه القوى الاستعمارية يبدل جو الانطلاق الفرح الذي ساد المرحلة الاولى. ان العدو يشن هجومه مركزا نقاط معينة تتجمع فيها قوى كبيرة. وسرعان ما تصبح قوى العدو اكبر من القوة الوطنية الضاربة في نقطة معينة. ومما يفاقم الأمر ان القوة الوطنية المحلية تميل في اول الامر الى خوض المعركة وجها لوجه، فالتفاؤل الذي سيطر على المشاعر في المرحلة الاولى يجعل القوة الوطينة متهورة، ويفقدها شيئا من الشعور بالواقع. ان الجماعة التي رسخ في اعتقادها ان منطقتها هي الأمة بأسرها، ترفض ان ترخي الحبل، ولا تطيق ان تقاتل متراجعة. وبذلك تسقط ضحايا كثيرة، ويبدأ الشك بالتسرب الى النفوس. ان الفرقة المحلية تجابه الهجوم المحلي مجابهتها لمعركة حاسمة يتوقف عليها مصير الكفاح كله. انها تتصرف تصرف من يحسب ان مصير البلاد كله يتقرر هنا.

يجب إذن أن ندخر قوانا، أن لا نلقيها في الميزان دفعة واحدة. إن احتياطات الاستعمار أغنى وأكبر من احتياطات المستعمَر. والحرب مستمرة. والعدو يدافع عن نفسه. وموعد التصفية الكبرى ليس اليوم ولا غداً. لقاء بدأت هذه التصفية منذ أول يوم في الواقع، ولن تنتهي يوم لا يبقى ثمة خصم، بل يوم يدرك هذا الخصم لأسباب كثيرة إن مصلحته نفسها تقتضي أن ينهي هذا الصراع، وأن يعترف بسيادة الشعب المستعمَر. يجب أن لا تبقى أهداف الكفاح غامضة غموضها في الأيام الأولى. فان لم ننتبه إلى هذا تعرضنا في كل لحظه لان نرى الشعب يتساءل عند أي تنازل يتنازله العدو: فيم نطيل هذه الحرب ؟ ذلك أن الناس قد بلغو من تعودهم على استحقار المستعمِر لهم ، وعلى إصراره على الاستمرار في اضطهادهم مهما كلف الأمر ، انهم ما أن يلاحظوا بادرة طيبة منه، وما أن يظهر لهم شيئا من حسن الاستعداد ، حتى يحيوا ذلك مدهوشين وحتى يباركوه فرحين. إن المستعمر يميل عندئذ إلى أن يغني طربا. فيجب إذا أن نضاعف الشرح والتوضيح، ان نفهم المناضل أن تنازلات الخصم ما ينبغي أن تضله عن الحقيقة، أن تعميه، فهذه التنازلات ليست إلا تنازلات. وهي لا تمس جوهر الأمر، حتى ليمكن أن يقال ، من وجهة نظر المستعمر، أن كل تنازل لا يمس جوهر الأمر ما لم يتناول النظام الاستعماري في جوهره.

إن المناضل الوطني الذي هجر المدينة بعد أن آلمته المناورات الديماغوجيه المتخاذلة التي يقوم بها المسئولون في الحزب، بعد أن خيبت ظنه ((السياسة))، يكتشف أثناء النضال العملي المحسوس سياسة جديده لا تشبه السياسة القديمة بوجه من وجوهها، أنها سياسة أناس مسئولين وقاده داخلين في التاريخ يتولون بعضلاتهم وأدمغتهم توحيد كفاح التحرير. إن هذا الواقع الجديد الذي سيعرفه الاستعماري يكشفن جوانب كانت مجهولة ويفجر معاني جديده، ويضع الإصبع على التناقضات التي كان يخبئها ذلك الواقع. إن الشعب الذي يكافح، الشعب الذي يدرك بالنضال هذا الواقع الجديد ويعرفه، يسير حين يتحرر من الاستعمار متنبئاً بجميع محاولات التضليل، متهيئا لجميع الأكاذيب التي تلفق باسم الوطنية. والعنف وحده، الذي يمارسه الشعب، العنف المنظم الواعي الذي ينيره قاده الثورة، هو الذي يتيح للجماهير أن تحلل الواقع الاجتماعي وأن تملك مفتاحه. وبدون هذا النضال، بدون هذه المعرفة النابعة من النضال، لا يكون ثمة إلا تهريج.. قليل من التبديل، بضعة إصلاحات في القمة راية وطنية، أما تحت، فكتله كبيرة

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

من الناس ما تزال تعيش في (في القرون الوسطى)، وما تنفك تجري حياتها على وتيرة ثابتة.

إن البرجوازية التي تستلم مقاليد السلطة في نهاية العهد الاستعماري هي برجوازية متخلفة. قُوَتَها الاقتصادي تكاد تكون صفراً، أوهي على الأقل لا تقاس أبداً بالقوة الاقتصادية التي تملكها برجوازية البلاد المستعمرة التي تريد هذه البرجوازية الوطنية أن تحل محلها. لقد ظنت البرجوازية المحلية لنرجسيتها وغرورها أن في وسعها أن تحل محل برجوازية الاستعمار وأن تكون خيراً منها. ولكن الاستقلال ما يلبث أن يضعها في مآزق حرجة، فإذا تلجأ هي إلى وسائل تجلب الكوارث، إذ تتجه بنداءات خائفة إلى الدولة التي كانت تستعمِر بلادها. ذلك أن العناصر الجماعية والعناصر التجارية التي هي أكثر أبناء الدولة الجديدة وعيا تتميز بأنها قليلة العدد، بأنها متمركزة في العاصمة، وبأن أنواع نشاطها لا تتعدى التجارة والاستثمارات الزراعية والمهن الحرة، فليس بين أفراد هذه البرجوازية الوطنية أناس من رجال الصناعة أو رجال المال. ان البرجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة ليست متجهة نحو الإنتاج، والابتكار، والبناء، والعمل، وإنما هي تنفق نشاطها كله في أعمال من نوع الوساطة. أن نفسية البرجوازية الوطنية هي نفسية رجال أعمال، لا رواد صناعة. ويجب أن نعترف أن جشع المستوطنين، ونظام الحجر الذي أوجده الاستعمار لم يدعا للبرجوازية حرية الاختيار كثيرا.

انه ليستحيل على البرجوازية أن تجمع رأسمالا في ظل النظام الاستعماري. والرأسمالية التاريخية التي يبدو أن البرجوازية الوطنية الصادقة في البلد المتخلف قد خلقت للنهوض بها هي أن تنكر نفسها كبرجوازية هي أن تنكر نفسها كأداة لرأس المال، وأن تضع نفسها وضعا كاملا في خدمة رأس المال الثوري الذي هو الشعب.

إن على البرجوازية الوطنية الصادقة في البلد المتخلف أن تفرض على نفسها خيانة المهمة التي كانت ميسرة لها، أن تدخل مدرسة الشعب أي أن تضع تحت تصرف الشعب الرأسمال الثقافي والتكنيكي الذي استطاعت أن تنتزعه حين مرورها بجامعات الاستعمار. ولكننا نرى آسفين أن البرجوازية كثيرا ما تتنكب هذا السبيل البطولي الإيجابي الخصب العادل، لتسير راضية النفس مطمئنة البال في طريق فظيع، مناقض لمصلحة الأمة، هو الطريق الذي تسلكه برجوازية تقليدية، برجوازية برجوازية، برجوازية ارتضت في غباء وحمق وحطة أن لا تكون إلا برجوازية.

لقد رأينا أن هدف الأحزاب الوطنية يصبح منذ مرحلة من المراحل هدفا قوميا تماما. فهو يعبء الشعب حول شعار الاستقلال، مرجئا ما عدا ذلك للمستقبل. فإذا سألت رجال هذه الأحزاب عن البرنامج الاقتصادي الذي ستستلزمه الدولة، وعن النظام الذي يريدون إقامته، رأيتهم عاجزين عن الإجابة، لأنهم يجهلون كل الجهل اقتصاد بلادهم. ومع ذلك ما تفتأ البرجوازية الوطنية تطالب بتأميم الاقتصاد والقطاعات التجارية. ذلك أن التأميم عندهم لا يعني وضع مجموع الاقتصاد في خدمة الأمة، وتحقيق كافة حاجاتها، وهو لا يعني تنظيم جميع شؤون الدولة على أساس علاقات اجتماعية جديدة يراد تسهيل وجودها، وإنما يعني التأميم عندها نقل الامتيازات الموروثة من العهد الاستعماري إلى أهل البلاد.

ولما كانت البرجوازية لا تملك الوسائل المادية، ولا الوسائل العقلية الكافية (مهندسين، فنيين) نراها تكتفي بوضع اليد على مكاتب الأعمال وبيوتات التجارة التي كان يشغلها المستوطنون الأجانب. إن البرجوازية الوطنية تحتل الأمكنة التي كان يشغلها الأوروبيون: أطباء ومحامين وتجار وممثلي شركات ووكلاء عامين ووسطاء. انه تشعر أن من واجبها، حفاظا على كرامة البلاد وحفاظا على نفسها، أن تحتل جميع هذه المراكز.

ومنذ ذلك الحين تراها تفرض على جميع الشركات الأجنبية الكبرى أن تمر بواسطتها، سواء

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

أكانت تريد أن تبقى في البلاد أم تنوي أن تدخل في البلاد. إن البرجوازية الوطنية تكتشف لنفسها هذه المهمة التاريخية وهي أن تكون وسيطا. وهكذا لا تكون رسالتها تغيير أحوال الأمة، بل جعل نفسها وسيطا بين البلاد وبين رأسمالية مضطرة إلى التخفي، رأسمالية تضع على وجهها قناع الاستعمار الجديد. وترتاح البرجوازية الوطنية إلى هذا الدور الذي تقوم به، أعني دور وكيل للبرجوازية الغربية، دون أن يكون ثمة عقد ولا غضاضة. وهذا الدور يدر ربحا ضئيلا، هذه الوظيفة التي تغل رزقا يسيرا، هذا الضيق في النظرة، هذا النقص في الهمة والطموح. هذا كله إنما يرمز إلى عجز البرجوازية الوطنية عن النهوض بالدور التاريخي الذي تنهض به البرجوازية. فما تعرف به كل برجوازية وطنية من أنها نشيطة زائدة مبتكرة مستكشفة لعوالم جديدة، لآفاق جديدة، لا نرى مثله لدى هذه البرجوازية الوطنية. إن روح التمتع والتلذذ هي المسيطرة لدى البرجوازية الوطنية في البلدان المستعمَرة. ذلك إنها على المستوى النفسي تشبه البرجوازية الغربية وتستمد منها تعاليمها، وتقتفي آثارها في الجانب السلبي وتنحط دون أن تكون قد قطعت مراحل الاستكشاف والابتكار الأولى التي قطعتها البرجوازية الغربية، وحققت بها أشياء إيجابية على كل حال. إن البرجوازية الوطنية في أول عهدها تشبه البرجوازية الغربية في آخر عهدها. وما ينبغي أن نظن أنها تغذ السير وتحرق المراحل. فإنما هي في حقيقة الأمر تبدأ بالنهاية. لقد دلفت إلى الشيخوخة المتهدمة قبل أن تعرف ما يعرفه عهد الصبا والمراهقة من نزق وتهور واندفاع.

دش اظافره، وتاركا في ربوع الجزائري انواراً من دفق عقله وقلبه.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous